مقياس النقد الأدبي الحديث

النقد التاريخي

دراسات أدبية ونقدية

- **كان تفسير الإنسان لظواهر الكون تفسيرا أسطوريا يكون فيه عبدا لقوى خارقة، وبمجيء عصر النهضة، تغيرت النظرة، وأصبح لكل ظاهرة كونية تفسيرا علميا دقيقا يُحدد بإطاره الزماني والمكاني.**
- **أصبح الإنسان هو المركز والمحرك والخالق والمغير، فأبدع في مجال العلوم التجريبية ووصل إلى نتائج حتمية ثابتة، حاول بذلك النقاد والأدباء نقل ما توصلت إليه العلوم التجريبية إلى حقل الأدب ونقده، فرأوا أن يضعوا أسسا ومبادئا ومعايير لقراءة الأعمال الأدبية والحكم عليها بطريقة أقرب إلى العلمية منها إلى الذوقية والذاتية، وهذه الجهود قطع نقادنا العرب أشواطا مهمة للوصول إلى تجسيدها وتحقيقها، وتوصل النقد إلى ضرورة ابتكار المنهج سبيلا وحيدا في الدراسة والاستنتاج اعتمادا على جهود أرسطو وأفلاطون ومن أتى بعده من فلاسفتنا العرب.**

- والنقد التاريخي من المناهج السياقية التي تسُوق الدراسة والبحث إلى إطار خارجي محدد، متبعة في ذلك خطوات علمية دقيقة من فرضيات واستقراء واستدلال واستنتاج إلى خروج بحكم نهائي بعيدا عن النظرة الكلية الذوقية الذاتية القديمة للنص.
- كان لزاما على النقد العربي أن يلتحق بركب النقد العلمي التاريخي الغربي، لأن الناقد العربي القديم كان نقده ذوقيا ذاتيا، والشعر كان ارتجاليا، أما اليوم فقدنا صفات الناقد القديم وأصبح الشعر مدونا وأعطيت للنثر أهمية بعد أن كان مهمشا، وهذا يدفعنا للبحث عن طرق جديدة لقراءة النصوص الأدبية.
- والنقد التاريخي هو تطبيق المنهج التاريخي على الظاهرة الأدبية، اعتمادا على قواعد وقوانين وخطوات مرتبة ومنظمة للوصول إلى نتيجة علمية ومنطقية غير قابلة للرفض أو التشكيك.
- إنه لا يمكننا فهم عمل أدبي إلا بالعودة إلى تاريخه وسياقه وظروف عصره ومؤلفه وبيئته التي أثرت فيه وطبيعة اللغة التي ألف بها، فالتاريخ والفلسفة يعيدان إلى النص كينونته الأولى، عندها يفعل النص مفعوله في أعماقنا كما أراد له مؤلفه وإن تغير العصر والسياق، عندها نستطيع الحكم على النص.

المنهج التاريخي

- يركز المنهج التاريخي على دراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للعصر الذي ينتمي إليه الأدب، ويتخذ منه طريقا لفهم الأدب وتفسير خصائصه، واستجلاء كوامنه وغوامضه، فهو أبو المناهج السياقية، والمؤثر في غيرها من المناهج النسقية المعترضة عليه.
- وللتأريخ معنيان: عام ندرس الظاهرة الأدبية تبعا للتطور، وخاص يربط الحدث الأدبي بالزمن ويقسم الأدب إلى عصور، ويستنتج صفة أدبية غالبة في كل عصر.
- والنص في المنهج التاريخي ثمرة لصاحبه، والأديب صورة لثقافته، والثقافة إفراز للبيئة، والبيئة جزء من التاريخ، فالنقد تأريخ للأديب من خلال بيئته.
- من نقاد هذا المنهج الناقد الفرنسي سانت بوف (ت 1869)، الذي ركز على شخصية الأديب وما يؤثر فيها من حوله، واهتم بالقرن 16م و17م، ودرس شخصيات الأدباء وحياتهم، وصنفهم إلى فصائل فكرية، ونماذج نفسية وأخلاقية، فالأدباء كبقية فصائل الكائنات الحية تتأثر حسب ما يقع عليها من مؤثرات خارجية.

- وتعمق هيبوليت تين (ت 1893) في بحوثه الأدبية التاريخية، ونفى وجود فروق فردية أدبية، مؤكدا على أن هناك قوانين جبرية تتحكم في الأدباء، وطبق نظريته في كتابه «تاريخ الأدب الإنجليزي»، ويستند بحثه إلى ثلاثة قواعد صارمة ملزمة متحكمة في الأدباء وهي : الجنس، البيئة، العصر.
- بينما حاول فرديناند برونتيار (ت 1906)، تطبيق نظرية التطور على الأدب متمثلا الأنواع الأدبية كائنات عضوية متطورة في كتابه « تطور الأنواع الأدبية» سنة 1890، فالآداب تتطور وتتكاثر منتقلة من البساطة إلى التركيب عبر الزمن لتصل إلى مرحلة الاكتمال والنضج، قد تنتهي بعد ذلك وتنقرض.

- ومن آراء برونتيار النقدية حكمه على الشعر الغنائي في القرن 19م الذي تطور عن الوعظ الديني الذي كان ازدهر في القرن 17م بفرنسا ثم انقرض، فالوعظ الديني أصبح شعرا رومنسيا يتغنى بالمشاعر الروحية، ويثق بالطبيعة، ويصور لنا زوال الدنيا وفنائها، وكلها جوانب كان الوعظ الديني يركز عليها.
- ويعد غوستاف لانسون (ت 1934) رائد المنهج التاريخي وإليه تنسب المدرسة اللانسونية الفرنسية، حيث أعلن عن تبنيه للمنهج التاريخي في محاضرته «الروح العلمية ومنهج تاريخ الأدب» سنة 1909، ومقالته «منهج تاريخ الأدب» سنة 1910، ثم رفع ريمون بيكار بعده لواء هذا المنهج ودخل في معارك نقدية عنيفة مع رولان بارت انتهت بالإطاحة بالمنهج التاريخي.

اتجاهات النقد التاريخي

- **للنقد التاريخي ثلاث اتجاهات:**

1- اتجاه وثق الأدب بالظروف السياسية، وقسم إلى عصور، وهو اتجاه أرسى دعائمه هيبوليت تين، ومن الكتب النقدية في هذا الاتجاه كتاب تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف.

2- اتجاه درس صلة الأدب بالبيئة التي احتضنته، حيث يربط الناقد بين الأديب وكل ما حوله بدءا من أسرته، وهذا الاتجاه دعا إليه سانت بوف، وطبقه طه حسين في كتابه تجديد ذكرى أبي العلاء المعري.

3- اتجاه جمع بين التحليل التاريخي العلمي للأدب والتقويم الجمالي الفني، ومن ممثليه غوستاف لانسون (ت 1934) في كتابه تاريخ الآداب الفرنسية، ومحمد مندور في كتابه النقد المنهجي عند العرب.

• النقد التاريخي العربي

- من نقادنا العرب الذين تبنوا المنهج التاريخي وطبقوه في دراستهم النقدية طه حسين في كتابه في الشعر الجاهلي، وكتابه تجديد ذكرى أبي العلاء، وهي كتب ربط فيها طه حسين بين الأدب والتاريخ والأحداث السياسية والظروف البيئية التي عاشها الشعراء، يقول طه حسين في تمهيد كتابه تجديد ذكرى أبي العلاء: « .. لم يكن لحكيم المعرة أن ينفرد بإظهار آثاره المادية أو المعنوية، وإنما الرجل وما له من آثار وأطوار نتيجة لازمة، وثمرة ناضجة، لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه، وتصوير نفسه، من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان»، وهذا الحكم يؤكد تأثر طه حسين بتين من خلال ربط الشاعر بمؤثرات البيئة والجنس والزمان.

- وطبق أحمد أمين المنهج التاريخي في مجموعته النقدية: « فجر، ضحى، ظهر الإسلام» وخلص إلى نتائج عامة منها: أن الجاحظ نموذج لامتزاج الثقافات في القرن 3 هـ ، والمبرد نموذج للثقافة العربية الخالصة ...
- وزاوج سيد قطب في كتابه النقد الأدبي أصوله ومناهجه، بين المنهجين التاريخي والفني، فالمنهج التاريخي يعطيك الآليات العلمية والمنهجية لتتبع الظاهرة الأدبية، والمنهج الفني يبقي لك عن الصبغة الأدبية للدراسة النقدية، ويدفع الناقد إلى التركيز على الذوقية في التعاطي مع النصوص.
- والكتب النقدية المتأثرة بالمنهج التاريخي كثيرة منها: بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف، النقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان، تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ، محمود سامي البارودي لعمر الدسوقي ...
- وفي الجزائر نجد كتب أبو القاسم سعد الله وعبد الله الركيبي وصالح خرفي.

سلبيات النقد التاريخي

1- الاستقراء الناقص، والأحكام الجازمة: ومن ذلك الاعتماد على الأحداث البارزة، والأسلم أن نجمع ما نستطيع من نصوص وأدلة، ولا نصدر حكما إلا بعد الانتهاء من كل المستندات والشواهد. ومن الأمثلة حكم طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء» على أن شعر المجون هو روح العصر العباسي، كما اكتفى بشعر عنترة وطرفة وامرئ القيس دون سواهم في دراسته عن الشعر الجاهلي. وتصور العقاد لشخصياته في عبقرياته دون تثبت، وحكم سيد قطب على شعور الشاعر العربي بالطبيعة في كتابه « كتب وشخصيات» مقتصرا على الشعر المشهور فقط.

ومن الأحكام: الترجمة عن الهنود هي من أوجدت شعر الزهد، كثرة الجواري هي السبب في انتشار الغناء، عزلة الحجاز عن السياسة هي ما خلق شعر الغزل...

2- التعميم العلمي، حيث من أخطاء النقد التاريخي ثقته بكل المستجدات العلمية ومحاولة تطبيقها على الأدب، ومن ذلك تطبيق نظرية التطور على الأدب، وطبيعة الأدب تختلف عن العلم، فهو قصة المشاعر والأحاسيس ورواسب الشعور قد لا تتابع تطور الأحياء، فالأدب لا يتحمل صرامة العلوم ودقتها ومعياريتها.

3- إلغاء الفوارق العبقرية والشخصية بين الأدباء، وقد عللها سيد قطب أنها كمون واختزان ثم تظهر فجأة كالبركان.

4- الأدب ليس تصورا للبيئة فحسب بل هو خاضع للعنصر الشخصي والمزاج الفردي.

5- اعتبار النص وثيقة تاريخية، يستعان به لإثبات حقائق تاريخية.

6- التركيز على المبدع وبيئته على حساب النص.

مراجع المحاضرة

- حسين الحاج حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه.
- طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء.
- علي جواد الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي.
- فائق مصطفى وعبد الرضا علي، في النقد الأدبي الحديث.
- إنريك أندرسون إمبرت، مناهج النقد الأدبي، ترجمة الطاهر أحمد مكي .
- سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه.
- يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي.